" الدلالة الرمزية لأنشودة الجوقة عن " الإنسان" في مسرحية "أنتيجوني" لسوفوكليس "

أ.د.محمد حمدى إبراهيم
كلية الآداب – جامعة القاهرة

تتناول مسرحية " أنتيجوني " (Ἀντιγόνη) قضية معقدة ، ليس من السهل حسمُها بوجهة نظر فردية أو من خلال تفسير أحادي . ومن أجل هذا السبب – في تصوري – فإنها تتميز عن سواها من المسرحيات بثنائية البناء double foundation وتقابلية الشخصيات؛ فضلاً عن أنها تقوم على تقابل فريد بالنسبة إلى أطراف الصراع . وهذه الثنائية ليست اضطرارية – كما ذهب نفر من النقاد – بل ثنائية تعمد سوفوكليس اختيارها ، ليعبر من خلالها عن مشكلة معقدة لا سبيل إلى طرحها سوى عن طريق هذا البناء الثنائي . ويكمن التعقيد في هذه المسرحية في أن القضية التي يتم تناولها فيها ذات طبيعة تركيبية خاصة ، تجمع بين ما يخص البشر وما يخص الآلهة في آن . ومن اللافت للنظر أن مؤلفها سوفوكليس لا يدين بقدر ما يعلق ، ولا يبرر بقدر ما يفسر ، فضلاً عن أنه يجعل الجوقة في المسرحية لا تدلي برأي صريح منذ البداية ، بل تتأرجح في حكمها على أفعال الشخصيات ، ولا تستقر على وجهة نظر بعينها إلا تدريجياً ، حينما تصل إلى قدر معقول من فهم أبعاد المشكلة المعروضة أمامها .

فالجوقة في مبدأ الأمر تصابُ بصدمة وتعتريها الدهشة حينما ترى أن أنتيجوني تجنح إلى التهور في مسلكها ، وتبدي من حدة الطبع قدراً ليس بالقليل ، ولذا فإنها في الأبيات (٤٧١ – ٤٧٢) تعلق على رد أنتيجوني العنيف على الحاكم كريون خلال المواجهة الأولى بينهما بقولها :

" إن الابنة الوليدة تبدي حدة الطبع التي كانت لوالدها ،
إذ إنها لا تعرف اللين في مواجهة ما يحيق بها من شرور ."

في حين تميل الجوقة إلى إبداء إعجابها بكلمات كريون لما يبدو في حديثه من عقلانية ومنطق محكم . ومن الواضح أن الجوقة في هذا الموقف كانت تخشى أن يكون مبعث تلك الحدة أو ذلك العنف من جانب الفتاة هو اللعنة المتوارثة ἄτη التي استهدفت أسرتها منذ خطيئة جدها لايوس ؛ لذا فإن الجوقة تلقي الأنشودة التالية ذات الكلمات الموحية (الأبيات ٥٨٢ – ٦٢٥) :

" سعداء هم أولئك الذين لم يذوقوا طعم الشر في حياتهم !
فاللعنة لا تتغاضى عن أحد من أفراد أسرة زلزلتها السماء ،
بل تحل بثقلها على كثير من نسل هذه الأسرة .....
ومنذ عهد قديم أرى أن الأحزان تطبق على أبناء لابداكوس ،
وأن المعاناة تعصف بهم جيلاً بعد جيل ،
وأن أحد الأرباب قد قذف بهم إلى الهاوية دون كفارة .
والآن يبزغ الضوء فوق آخر أغصان أسرة أويديبوس ،
وإن منجل أرباب العالم السفلي سيبتر هذا الغصن جراء اندفاع العقل وخطيئة اللسان
..... ففي الحاضر والماضي وفيما هو آت من الزمان حسْبُنا هذا القانون :
" على قدر عظمة الفانين في الحياة ، يكون مقدار المكابدة والمعاناة ."
حقاً إن الطموح العريض يحقق الغنم لأناسي كثير ،
غير أنه ينحدر بالكثير أيضاً إلى التكالب على الشهوات التافهة الرخيصة ،
إلى أن يدهمهم الإخفاق والفشل دون أن يفطنوا أو ينتبهوا ، فتزل أقدامهم ويسقطون
حيث النار المستعرة . ويبدو لي أن القول المأثور التالي قد قيل عن حكمة بالغة
: " إن الشر قد يبدو أحياناً خيراً في عيني من يصب الإله عليه اللعنة ،
وإن تلك اللعنة لتحل به دون إبطاء ."

غير أن الجوقة بعد ذلك تشعر بمشاعر الحزن والأسى تجاه الفتاة التعسة وتتعاطف معها في محنتها ، حتى مع تسليمها بتجاوزاتها واحتدادها في حديثها ، كما تحس في الوقت نفسه أن منطق كريون المحكم ينطوي بوضوح على تجاهلٍ سافرٍ للمشاعر الإنسانية ، وكذا للنواميس التي تحكم الكون بما فيه من بشر وأرباب .

ولقد بدأت الجوقة في أنشودتها الأولى – التي هي محور بحثنا هذا – بالحديث عن الإنسان ، ذلك الكائن العظيم الذي نجح عن طريق إعمال فكره وعقله في جميع الميادين ، قهر الطبيعة من حوله وبسط سلطانه عليها . ثم توضح لنا الجوقة أن الإنسان – رغم تفوقه العقلي الذي مكنه من بسط سلطانه على جميع الكائنات التي تحيا معه على ظهر الأرض، فإن عقله هذا نفسه هو الذي يشكل العقبة الكئود أمامه حينما يصبح لزاماً عليه أن يختار بين البدائل التي تبدو الفروق بينها غير ملحوظة ، أو حينما يريد أن يملي إرادته ويفرض قوته . كما ترى الجوقة أن الموت هو لغز الحياة الوحيد الذي قهر هذا الإنسان ، وجعله يقف أمامه عاجزاً مشلولاً ، حيث لا ينفع تصرف ولا يجدي تفكير . وقبل أن نحلل أنشودة الجوقة عن الإنسان ، التي هي محور دراستنا ، أرى أن من الأوفق أن أورد هنا نصها الكامل ، بعد أن قمت بترجمتها إلى لغتنا العربية ترجمة أعددتها بنفسي كي تغدو دقيقة ومحددة ، نظراً لأهمية هذه الأنشودة الفائقة في نظري (الأبيات ٣٣٢ – ٣٧٥) :

" كثيرةٌ هي العجائب في (الحياة) ، لكن لا أكثر مدعاةً للعجبِ من الإنسان .
فهو يمخر عباب البحرِ المزبد ، تسوقُه ريحُ الجنوبِ العاصفة ،
ويشق طريقه عبر وديان اليم ذات الأمواج المتلاطمة .
بكدِّه يُنهكُ الأرضَ – أقدم الأرباب – التي لا سبيل إلى إفنائِها ،
ويقلبُ تُربَتها بالمحراثِ والخيل عاماً بعد عام .
قنص في قبضته طيور الفضاء الرشيقة ،
ووحوش الفلاة الضارية ، والكائنات التي تتخذ المحيط مقراً لها ،
وأوقعها في براثن شباكه دقيقة الصنع .
إنه الإنسان ذو الدهاء البالغ ، سيد الحيوانات التي تجول في الحقول ،
والضواري التي تجوس فوق الجبال .
روض الفرس البري ، ووضع النير فوق عنق الثور
الذي يتناثر الزَّبَد من شدقيه .
تعلم استخدام اللغة والأفكار التي تماثل الريح في سرعتها ،
وابتكر القرارات الحاسمة التي تنظم حياة الجماعات في المدن ،
وعرف كيف يتقي لدغات البرد القارس وشر الجو العاصف .
ليس هناك أمرٌ بعيد عن سلطانه ، ولا (معضلة)
تستعصي على فِكره ودهائه .
وجد لكل داءٍ دواءً ما خلا الموت ،
الذي لم يجد منه مفراً ولا مهرباً .
لديه قدرة على الابتكار والإبداع تصلُ به إلى مدىً أبعد من متناول آماله ؛
وهي قدرة تدفعه طورًا إلى الشر وطورًا إلى الخير .
وهو عندما يبجل قوانين بلده ويوقر عدالة الأرباب ،
يعيش سامياً ويحيا شامخاً في مدينته .
أما حينما ينغمسُ في الشر جراء صلفه وغطرسته ،
فلن تكون له مدينة (أبداً) .
ألا ليت من يقترف هذه الفعالَ يُحرم من
مشاركتي نارَ موقدي ومن مشاركتي أفكاري! "

إن الجوقة ، التي تشاهد مثلنا هذا الصراع المرير ، تعتقد أنه ليس في مقدور البشر الفانين التوصل إلى حسم هذه القضية المعقدة ، عن طريق قوانينهم أو وجهات نظرهم العقلية وحدها، وأنه لا حل لها سوى بالاستجابة لقانون الأرباب ، الذي بوسعه

وحده أن يحقق العدالة بين الرغبات الإنسانية عند التصارع أو عند التعارض . فكل ما لدى البشر من عقل أو قوة أو عاطفة يجنح بهم نحو الشر بمثل ما يهديهم إلى الخير ، وأن فكر الإنسان مهما سما عاجز بمفرده عن تحقيق العدالة المنشودة .

كما أن وضع سوفوكليس لأنشودة الجوقة عن الإنسان في هذا المكان من المسرحية قبل تصاعد الأحداث له مغزى ودلالة مهمة : فمن ناحية توضح الأنشودة أن المشكلة الأساسية التي فجرت الصراع هي الموت أو بالأحرى مشكلة الدفن بعد الموت ، وبالتالي فإنها تثير قضية احتلت القدر الأوفى في الفكر اليوناني ، وهي قضية إيقاف العداوة ووضع حد للخصومة بعد موت الخصم . وتوضح الجوقة بجلاء أن الموت لغز مستغلق يقف الإنسان – رغم عظمته وتفوقه في الميادين كافة – أمامه مذهولاً حائراً . ومن ناحية أخرى توضح أنشودة الجوقة أن البشر الذين يتصفون بالسمو العقلي مازالوا عاجزين عن توجيه فكرهم نحو ما يحقق لهم السعادة ، وينأى بهم عن مكابدة المعاناة ، ومازالوا يجدون صعوبة كبرى عند اضطرارهم للاختيار بين بدائل تبدو الفروق بينها غامضة لا تستبين .

وبالتالي فإن هناك أمرين لا أمر واحد هما اللذان يقفان حجر عثرة أمام الإنسان العظيم : الموت ، والاختيار بين البدائل، خاصة عند رغبة الإنسان في فرض إرادته فرضاً . وهذان الأمران وُجدا مع الإنسان منذ بداية وجوده في الكون ، ومازالا يشكلان التحدي الأكبر الذي تجابهه أجيال البشر المتلاحقة في كل أمد وحين . ولعلنا نلاحظ أن الأمر الأول ، وهو الموت وما يستتبعه من قضية وجوب الدفن بعد الموت ، هو سبب المشكلة التي يتم عرضها في المسرحية بمثل ما هو أساس الصراع الذي دار فيها . أما الأمر الثاني ، وأعني به الاختيار الصعب الذي تتعرض له الإرادة الإنسانية عندما تضطر إلى الأخذ ببديل والتخلي عن البديل الآخر ، فهو أمر تلمح الجوقة دون أن تصرح بأنه سيحدث بعد قليل في المسرحية ، وأن أطراف الصراع سوف يتعرضون له ، وأن مصائرهم سوف تتحدد بناءً على اختيارهم ، سواءً توخوا الحذر أو جنحوا إلى الشطط ؛ وأنهم رغم سموهم الفكري وسلوكهم الذي يبدو منطقيا في مجمله قد يتنكبون الصواب أو يقعون في المحظور . إن هذه الأنشودة ذات الدلالة والأهمية توضح للمشاهد منذ بداية المسرحية أن الإنسان في حياته يتعرض لمعضلتين أساسيتين تتفرع منهما سائر مشاكله الأدنى ، إحداهما تصادفه خلال مسيرة حياته – منذ مولده حتى موته – وهي اختيار الإرادة ، والثانية تنتظره في ختام حياته وهي الموت .

وانطلاقاً من هذا المفهوم الذي أوضحناه آنفاً ، فإن سوفوكليس يربط بين هذه القضية الثنائية التي تغنت بها الجوقة في الأنشودة ، والمشكلة الثنائية ذات البعدين البشري والإلهي التي تتم معالجتها داخل المسرحية . ومن الواضح أن فكرة مسرحية

" أنتيجوني " فكرة ذات طابع تركيبي على درجة عالية من التعقيد الجدلي ، وإلا ما وجدت صدىً وإعجاباً عند فيلسوف دياليكتي (= جدلى) من الطراز الأول هو هيجل . إن كلمات الجوقة طوال المسرحية بوجه عام ، وفي أنشودة الإنسان بوجه خاص ، تزخر بطابع رمزي يوحي إلى المشاهدين أن شخصيات المسرحية تواجه خيارات صعبة رغم ما يبدو مناقضا في ظاهرها ، وهي في الوقت نفسه خيارات معقدة. ومن الواضح أن هذه الشخصيات يسقط في أيديها وتلتبس عليها الأمور ، وأن الحل يستعصي على فكرها رغم كون كل شخصية منها من أصحاب الفطنة والحصافة . ذلك أن الاختيار بين الخير والشر – خاصة حينما يكون حتمياً أو مفروضاً على الإنسان – يضع الشخص أمام لغز مستغلق وتحدٍ صريح . فالشر – كما قالت الجوقة – قد يبدو في بعض الأحيان هو الخيرُ الصراح في نظر من استهدفته اللعنة؛ وقد يبدو الخير في نظر نفر من المقهورين الجانحين للصلف والغطرسة هو الشر بعينه. فكثيراً ما يعتقد هؤلاء الجانحين للشطط أنهم هم وحدهم الأذكياء وأن خصومهم مجردون من المعرفة؛ والمعنى الأخير قال فيه " صولون " ، المشرع الأثيني الشهير مقولة رائعة ذات دلالة : " من كان يظن أنه وحده الذكي الأريب ، وأن جاره عاطل عن المعرفة ، لأحمق ما في ذلك شك ." ولقد حذرت الجوقة المشاهدين أيضاً من الطموح الكبير لأنه يعد بالنسبة لها شراً مستطيراً، فهذا الطموح المهلك الذي حذر من عواقبه الشاعر يوربيديس في عدد من مسرحياته، قد يحقق الغنم والفائدة للطامحين ، بيد أنه كثيراً ما ينحدر بهؤلاء الطامحين إلى عاقبة وخيمة، ويسوقهم إلى التكالب على الشهوات والرغبات الرخيصة ، فينتهي بهم المآل إلى السقوط من حالق في هاوية سحيقة .